مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 153

في قضايا الثقافة الفلسطينية

زكريا محمد

رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية،
2002. 116 صفحة.

هذا الكتاب محاولة رائدة للبحث في مشكلات الثقافة الفلسطينية الراهنة عبر تناولها في مجملها، الأمر الذي يميزه من دراسات كثيرة تناولت حقولاً معينة أو ميادين مفردة من النتاج الثقافي الفلسطيني. يرى المؤلف أن الوقت حان للتعامل مع الثقافة الفلسطينية ككيان واحد، ولكشف تناقضات مسارها وبنيتها، والأشكال التي تأخذها هذه التناقضات وأسبابها الأعمق. بمعنى آخر: صار لا بد من النقد الثقافي العام، لتجاوز نقد الحقول المفردة والتسامي عنها.

يعلل المؤلف، في تقديمه للكتاب، دعوته إلى تبني هذه المقاربة النقدية بقوله إن ثقافة لا تتأمل ذاتها ومسارها، وتنقد هذا المسار، وتكشف إشكالياته هي، في الواقع، ثقافة قاصرة، ثقافة لم تبلغ سن الرشد بعد. ونظن أن الثقافة الفلسطينية اقتربت من سن النضج، وهذا ما يلزمها بأن تضع نفسها على المشرحة.

في الفصل الأول من الكتاب، المعنون "الثقافة مهمة حربية"، يشير المؤلف إلى أن الثقافة الفلسطينية تأخذ على عاتقها مهمات تفوق طاقتها بما يورطها في إشكاليات عميقة تدفعها، أحياناً، إلى الخروج عن ذاتها. فهذه الثقافة ملزمة بأن تثبت وجودها، لأنها إذا ما فشلت في إثبات كينونتها وهويتها الخاصة وضعت الشعب الفلسطيني والحق الفلسطيني موضع شك. وإذا كانت الثقافة جوهر الهوية الوطنية لشعب ما، فإن أي شعب لا يملك ثقافة خاصة به يكون بلا هوية، وبالتالي غير موجود، أو أن وجوده لا مغزى له؛ وهذا يعني أنه لا يملك حقاً في أرض، حتى لو كانت هذه الأرض أرضه وأرض آبائه وأجداده منذ آلاف السنين.

إزاء منطق الخصم العنصري، الذي ينكر وجود ثقافة أصيلة في فلسطين، ليبرهن أن أبناءها ليسوا شعباً – وبالتالي ليس لهم حق لا في الأرض ولا في تقرير المصير – تجهد الثقافة الفلسطينية في تأكيد ذاتها بكل ما تملك من قوة، وفي كل لحظة وكل يوم، وعبر أشكال متعددة.

لكن السعي لتأكيد الذات يصل في بعض الأحيان، كما يقول المؤلف، إلى حدود التطرف، الذي يبدو، في لحظات ما، كما لو أنه سيوصل إلى الانشقاق عن المجرى العام للثقافة العربية، وبحيث يبدو كأن فلسطينية الثقافة تقف ضد عروبتها. وهذا يؤدي،

في العادة، إلى ردة فعل معاكسة ترجع الثقافة الفلسطينية إلى عروبتها وتلغي وجهها الخاص. وهكذا فإن الثقافة الفلسطينية تتمزق بين تأكيد ذاتها ورفض هذا التأكيد، بين الرغبة فيه والخوف منه؛ ذلك بأن الضغط الذي تتعرض له لا يأتي من الأعداء فقط، بل من الأصدقاء أيضاً، أي من داخل الذات نفسها، لكن لأسباب مختلفة وزوايا نظر مغايرة.

أمّا البعد الثالث لهذه الإشكالية فهو أن الثقافة الفلسطينية، وخصوصاً الآداب والفنون، يقع عليها عبء هائل، يحس به كل منتج في حقل الثقافة. ولعل هذا جذر تورط الثقافة الفلسطينية في السياسة. فقد حوّل ضغط الخصم الثقافة إلى مهمة حربية من الطراز الأول (والحق أن الثقافة الإسرائيلية كانت، بصورة عامة، مهمة حربية). وكمثال للتحويل الإرغامي للثقافة إلى مهمة حربية، بفعل ضغط الخصم، يقتبس المؤلف مقولة محمود درويش، أو صرخته على الأصح: "أخشى أن يتفوقوا علينا شعرياً. هذه ستكون نهايتنا." فالشعر هنا يتحول إلى حرب، والذهاب إليه ذهاب إلى الجبهة. كما أن الهزيمة فيه هزيمة عامة؛ بمعنى أن كلاً من النجاح أو الفشل في كتابة الشعر ينعكس بقوة على وضع الشعب والقضية. إن الثقافة هنا تحمَّل فوق طاقتها، محوِّلةً المهمة الإرغامية التي فرضها الصراع إلى إرادة خاصة بها.

في فصل آخر بعنوان "النص الفلسطيني والنص الصهيوني"، يذهب المؤلف إلى أن النص الفلسطيني ملوث بالنص الصهيوني وأسير له إلى حد بعيد، في بعض المجالات على الأقل. ففي حقول، كالتاريخ القديم والحديث ودراسة تاريخ الهوية، يبدو النص الفلسطيني كردة فعل على النص الصهيوني. ويرى الكاتب أنه ربما يمضي زمن طويل قبل أن يتخلص النص الفلسطيني من هذا التلوث. كذلك يظهر ضغط النص الصهيوني على النص الفلسطيني في مجال الأدب، ولا سيما في حقل الشعر الذي هو أكثر الفنون أصالة لدى الفلسطينيين، حيث كان يرغم هذا النص على السير في مسارات محددة. كما يظهر في عدة ميادين، مثل الفن التشكيلي، والثقافة الشعبية، والفن المعماري.

في حقل التاريخ، يقول المؤلف إن قيام دولة إسرائيل عقّد علاقة الفلسطينيين بتاريخ بلدهم. فقد رأوا كيف عمل مؤرخو الصهيونية، يدعمهم جيش كامل من المؤرخين التوراتيين، على أن تبتلع لحظة قصيرة من هذا التاريخ الموغل في القدم تاريخ البلد كله. ووجد الفلسطيني نفسه أمام تاريخ لبلده محبوك بإحكام وبهدف واحد ووحيد: وَضْعِه هو خارج التاريخ. وكان استملاك ماضي فلسطين إكمالاً لاستملاك الحاضر وتأكيداً له. والحاضر يقتضي إزاحة الفلسطينيين من التاريخ. هكذا تم اغتصاب الماضي، أيضاً، لا الحاضر فقط. وهكذا نُقلت الحرب إلى الماضي، وتحول الماضي إلى مهمة حربية من الطراز الأول، وأُرغم الفلسطينيون على الحرب على جبهتين، الحاضر والماضي في آن واحد.

لم يكن الفلسطينيون على استعداد لحرب من هذا الطراز، ولذا يمكن القول إنهم نُكبوا في حقل التاريخ كما نكبوا في الحرب، إذ بدا "كما لو أن التاريخ القديم (لفلسطين) تُرك لإسرائيل والغرب." ويدل على ذلك أن الفلسطينيين لا يشاركون في النقاش الذي دار ويدور في شأن تاريخهم القديم، وتقتصر مساهمتهم على متابعة هذا النقاش والتعليق عليه، أو ترجمة أجزاء منه. ويقسم المؤلف المحاولات الفلسطينية المتواضعة لكتابة تاريخ فلسطين إلى قسمين: قسم يكتب التاريخ الفلسطيني كما يكتبه مؤرخو العهد القديم، ويتقبل الإنشاء التوراتي كما هو مبدئياً، وقسم آخر يهتم بالبحث عن "أصول" فلسطينية أبعد في التاريخ من الأصل الذي تفترضه إسرائيل لنفسها. غير أن هذا النموذج الأخير يقبل في عمله هذا جوهر المقولة الصهيونية بوجود أصلَيْن وحقّيْن يتصارعان منذ القدم بشأن أرض فلسطين. أي أنه يقبل بحق صهيوني ممتد في التاريخ على أرض فلسطين. ويرى المؤلف أن هذا كان منزلقاً خطراً جداً أدى إلى التسليم للصهيونية بجزء من تاريخ البلد.

يأخذ الكاتب على التأريخ الفلسطيني الحديث، وإن اعتبره في وضع أفضل قليلاً من التأريخ القديم، أنه يركز على الفترات التي يركز عليها التاريخ الصهيوني بالدرجة الأولى، أي أواخر الفترة العثمانية وأوائل القرن العشرين حتى أواسطه؛ الأمر الذي يعني أن التاريخ الحديث أيضاً جدالي، أي أنه، بالدرجة الأولى، ردة فعل على التاريخ الإسرائيلي، وليس إنشاء ذاتياً خالصاً.

يبدو تأثير النص الصهيوني واضحاً جلياً في مجال تاريخ الهوية الفلسطينية، إذ هناك شبه إجماع على الدور الحاسم للحركة الصهيونية في تأسيس الهوية الفلسطينية. وكمثال لهذا الإجماع، يعلن باحث فلسطيني (ماهر الشريف) أنه قد "ارتبطت ظاهرة تبلور شخصية (وطنية) فلسطينية، في العصر الحديث، بالاستيطان الصهيوني." (ص 33)

يرى المؤلف أنه حان الوقت لتصفية الحساب مع هذه النظرية غير البريئة التي يوافق عليها الجميع من حيث المبدأ، تقريباً؛ ذلك بأنها تؤدي إلى نتائج وتبعات مدمرة. فهي تجعل وجودنا نتاجاً لوجود العدو، عدونا. إذ نحن قبله لم نكن موجودين إلاّ كهيولى. وهو، على الرغم من وجوده العدواني، أو بواسطة هذا الوجود ذاته، شكَّلَنا وألبسنا هويتنا. وما دامت الأرض كمفهوم مرتبطة بالوجود، فإن أرضنا ذاتها لم تكن أرضنا. فمن لا وجود له لا أرض له.

يختلف المؤلف مع هذه النظرية ويؤكد أن الحقيقة عكس ذلك تماماً. فالحركة الاستيطانية الصهيونية أدت إلى تأخر تبلور الهوية الفلسطينية، وعرقلت تطورها. فقد دفعتها، بفعل الضغط، إلى أن تدمج ذاتها في غيرها، أي في محيطها، وأن تُعمي وعيها بهذه الذات. إنها لم تساهم في خلقها أو بعثها فحسب، بل دفعتها أيضاً خطوات إلى

الوراء قياساً بالهوية السورية، مثلاً، أو بغيرها من الهويات العربية في المنطقة.

ويستغرب الكاتب أن تكون هذه النظرية عن اختراع الحركة الصهيونية للحركة الفلسطينية قُبلت في الوسط الثقافي الفلسطيني إلى حد أنها تحولت إلى مسلّمة. وهذا، في رأيه، يدل على مدى تلوث النص الفلسطيني بالنص الصهيوني. لقد تلوث الأول حتى صار يردد مسلّمات الثاني، التي تعاكس الواقع والحقيقة معاكسة تامة. وهذا يظهر مدى حاجتنا إلى نقد نصنا والتمعن فيه كي يصبح نصنا فعلاً.

يطرح المؤلف، في فصل آخر بعنوان "عبادة الفولكلور"، آراء جريئة بصدد هيمنة الفولكلور على مختلف مناحي الثقافة الفلسطينية، ويرى أن الهوس به كان له أثر مدمّر. في فترة ما، بدا أن الفولكلور هو جوهر الهوية الفلسطينية وعنوان أصالتها، كما خُيل أنه هو المنبع الأعمق للفن والأدب، على الإطلاق.

يعرض الكاتب لعدد من وجهات النظر التي قيلت في تفسير أسباب "عبادة الفولكلور" عند الفلسطينيين. وهذه الظاهرة يرجعها البعض إلى عودة الوعي بعد هزيمة 1967، بينما يردها البعض الآخر إلى ما قبل ذلك، إلى أوائل الستينات عند ظهور منظمة التحرير الفلسطينية، حينما بدأت الحركة الوطنية الفلسطينية تستعيد ذاتها وملامحها بعد فترة الصدمة والضياع التي أعقبت نكبة 1948، وقد كانت بحاجة إلى الرموز الفولكلورية في نهضتها. كما أن هذا البعض يرى أن المجتمع الفلسطيني بدأ، في هذا الوقت بالذات، يستقر نسبياً بمناطق محددة، وتدخل شرائح واسعة منه في الحياة الحديثة وتنقطع عن الحياة الفولكلورية القروية. وتضافُر هذين العاملين معاً هو الذي ولّد الاهتمام بالفولكلور. وفي وجهة نظر ثالثة، يعتقد عزمي بشارة أن النزعة الفولكلورية لدى الفلسطينيين نبعت، في العمق، من دافع محدد هو دمار القرية الفلسطينية في نكبة 1948. فلم تكن حداثتنا هي التي أزالت القرية وأزاحتها، وإنما "حداثة" العدو. وقد أدى هذا إلى ردة فعل عكسية في اتجاه الحفاظ على تراث القرية وقيمها كنوع من المقاومة.

غير أن المؤلف يعتقد أن السبب المركزي الذي جعل عبادة الفولكلور تظهر وتزدهر إنما يكمن في الحركة الواقعية، الاقتصادية، التي كانت تدفع الناس نحو الانقطاع عن عالم القرية والابتعاد عنه بأشكال متعددة. وهذا يعني أن عبادة الفولكلور ازدهرت، بالضبط، في وقت الانقطاع عنه. ويرى المؤلف أن الوعي على هذا الأمر عنصر حاسم لمواجهة آثار الهوس المدمر بالفولكلور في حياتنا الثقافية. فالتخلص من عبادة الفولكلور، التي تنتج أناساً فولكلوريين، يبدأ من هذه النقطة.

إن المؤلف لا يعترض على فكرة الاستعانة بالتراث الشعبي لتأكيد الهوية الوطنية، لكنه يرفض اختزال الثقافة الفلسطينية إلى فولكلور. كما أنه يقلل من شأن المحاولات الإسرائيلية لسرقة الفولكلور الفلسطيني – الأمر الذي لا بد من أن يخالفه فيه

كثيرون – إذ يقول إن كون الهوية الإسـرائيلية هوية ملفقة يدفعها دوماً إلى السـرقة والاستعارة، لكن لا يمكن تحويل هذا الأمر إلى مؤامرة واسعة لـ "اغتصاب" الفولكلور الفلسـطيني. ويـأخذ المؤلف على الثقـافـة الفلسـطينيـة أنهـا، على الرغم من الهوس الفولكلوري الفلسطيني، لم تفرز جهداً مضاعفاً لتصنيف الفولكلور وفرزه ودراسته.

في الفصـول التـالية من الكتـاب، يتطرق المؤلف إلى عدة موضـوعـات جوهرية، كـالعلاقة بين الأدب الفلسطيني والسياسة، وغياب المركز السياسي – الثقافي الواحد، والانقطاع، وغيـاب الأجيـال الثقـافيـة، وتـأثير "الداخل والخـارج"، أو الوطن والشـتـات. وفي الخلاصـة، يرى المؤلف أن الحياة الثقافية الفلسـطينية، على الرغم من إنجازاتها والدور الذي أدتـه في الحفـاظ على الهويـة الوطنيـة، تعـاني مشـكلات عميقـة. وهو يرد أسـبـاب هذه المشـكلات إلى عوامل جغرافية وتـاريخية، وإلى المواجهة المديدة مع العدو، التي فرضت نفسها على كل حقل من حقول الثقافة.

لا يدعي المؤلف أنه أحاط بجميع مشكلات الثقافة الفلسـطينية، وإنما يعتبر بحثه محاولة صغيرة لوضع تخطيط أولي لعدد من المعضلات الأساسية التي تواجهها هذه الثقـافـة، كمقدمـة لنقد الذات. وأهميـة الكتـاب تنبع تحديداً من هـذه المحـاولـة الجريئة لتنـاول موضـوع ربمـا يعتبره كثيرون، في الأوضـاع الفلسطينية الراهنة، سـابقاً لأوانه، أو محرمـاً. ولربمـا أن أيـة محـاولـة رائدة من هـذا النوع لن توفق في الإجـابـة عن كل الأسـئلة، أو تقدم كل الحلول، كما أنها لا بد من أن تلقى النقد من هنا وهناك؛ فوضـع الثقافة الفلسطينية لا يقل تعقيداً عن وضع الشعب الفلسطيني نفسه. غير أن الجرأة في الطرح والتشخيص ووضع اليد على الجرح أمر لا بد منه لتصحيح المسار.

سمير صراص

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf